الفصل الأول

المدارس

القراءة والكتابة:

ذكر البلاذرى فى فصله المسمى بأمر الخط [1] أنه «دخل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب». ثم استشهد برواية الواقدى التى نصها:

جاء الإسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون». هذا، ومع أن النبى ﷺ كان أميا، فقد أظهر تقديره للعلم بقبوله من أسرى قريش أن يفدى الواحد منهم نفسه بتعليم عشرة من أولاد المسلمين. ومما يؤيد هذا ما قاله المبرد: «وفادى رسول الله ﷺ من رأى فداءه من أسرى بدر. فمن لم يكن له فداء أمره أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة. ففشت الكتابة فى المدينة»[2]. وقد روى البلاذرى أيضا أن النبى محمدا ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب: «ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتيها الكتابة»؟ كانت الشفاء كاتبة فى الجاهلية[3]. يظهر من ذلك أنه وإن كانت الأمية ضاربة أطنابها فى القسم الشمالى من الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام، كان لدى العرب بعض الوسائط لتعلم القراءة والكتابة، وأن عددا من رجالهم ونسائهم قرأوا وكتبوا أو عرفوا القراءة دون الكتابة. تلك كانت الحالة فى شمال الجزيرة. أما فى جنوبها - أى فى اليمن- فإن أمر القراءة والكتابة كان أكثر انتشارا كما يستنتج من ألوف الرُّقم الموجودة الآن من آثار عرب اليمن.

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٧١ [طبع ليدن].

(٢) الكامل للمبرد ١: ٢١٣ .

(٣) فتوح البلدان ص ٤٧١ .

القرآن والتعليم:

قلنا إن القراءة عرفت فى الجزيرة قبل الإسلام، غير أنها لم تكن عامة حتى ظهور القرآن. وليست علاقة القرآن بالقراءة بعلاقة صرفية اشتقاقية فقط بل هى علاقة تاريخية أيضا؛ لأن تطور القراءة والتعليم والتربية راجع إلى القرآن. فهناك تسلسل وارتباط لا يستهان بهما. وكما أن النصارى واليهود أقبلوا على تعلم القراءة وفتح المدارس فى الشرق والغرب لقراءة الكتب الدينية، كذلك تفانى المسلمون فى نشر التعليم لتعلم القرآن. قرأ أولئك القوم وكتبوا أولا لأنهم سبقوا فى كونهم (أهل الكتاب). ولم تقرأ الجاهلية لأنها لم تكن من «أهل الكتاب».

أما وقد جاء النبى العربى، وأنزل القرآن على العرب، وأصبح لهم مرجعا فى أمور العبادة والشرع والحياة الاجتماعية والسياسية، فقد اضطروا إلى التعلم للوقوف عليه. فالفضل الأكبر إذًا فى انتشار القراءة والكتابة وتأسيس المدارس عند العرب راجع إلى القرآن. وإذا اتبعنا المجاز فى التعبير قلنا أنه كان البراءة الأولى للتربية عند العرب.

التعليم فى العصر الأموى:

غير خاف أن الظروف السياسية مثل النزاع فى الخلافة والفتوح عاقت فتح المدارس فى العصر الأموى، إذ كان همَّ الأمويين الأول إكراه خصومهم على مبايعتهم من الجهة الواحدة، وتوطيد أركان الفتح العربى من الجهة الأخرى. ولقد كان العصر الأموى دور انتقال من البداوة إلى الحضارة، بل كان عصر تكيف بالمحيط البيزنطى. هذا، وقد نحت الدولة الأموية نحو غيرها من الدول سواء كانت شرقية أو غربية، وذلك من حيث الاهتمام بالمشاكل السياسية والإدارية أولا. ولما دانت لهم الأمور عنوا بالأشياء المعنوية مثل التربية والتعليم. على أن العصر الأموى مع انهماك رجاله بالشؤون الحربية والإدارية لم تعدم فيه المدارس. فمن المعروف أن الحجاج وأباه كانا معلمين بالطائف[1] حوالى منتصف القرن الأول للهجرة. وأن الكميت كان

(١) البيان والتبيين ١ : ١٤١ [طبع مطبعة الفتوح الأدبية بمصر سنة ١٣٣٢] راجع أيضًا الكامل للمبرد ص ٨٧، ٨٨ وابن خلكان ١ : ١٥٤ [طبع بولاق سنة ١٢٩٩].

يعلم الصبيان فى مسجد الكوفة[١] ولم يكن بينه وبين الحجاج إلا عشرون سنة. ويذكر الجاحظ أن الوليد بن عبد الملك مر بمعلم صبيان[٢]. ويروى أن عبد الحميد الكاتب كان أيضا معلم صبية، وذلك فى العصر الأموى. هذا شىء يمكننا من استنتاج أنه كان المعلمون والتعليم والكتاتيب فى أيام بنى أمية.

ومما هو جدير بالذكر اعتناء بنى أمية فى أمر تربية أبنائهم واختيار المؤدبين لهم. أما الدلالة على هذا فكثيرة منها: اتخاذ عبد الملك بن مروان مؤدبا لابنه الصغير[٣] واتخاذ هشام بن عبد الملك سليمان الكلبى على ما يقال مؤدبا لولده[٤] ويذكر الراغب الأصبهانى فى محاضرات الأدباء أن المنصور بعث إلى من فى الحبس من بنى أمية من يقول لهم:

«ما أشد ما مر بكم فى هذا الحبس؟»

فقالوا:

«ما فقدنا من تأديب أولادنا»[٥].

ومما رواه السيوطى بهذا الخصوص شىء عن روح بن زنباع إذ قال: «دخلت يوما على عبد الملك وهو مهموم، فقال: فكرت فيمن أوليه أمر العرب فلم أجده. فقلت أين أنت عن الوليد؟ قال إنه لا يحسن النحو»[٦].

هذا، ومن أراد الوقوف التام على ما قام به الأمويون فى سبيل تربية أبنائهم، فعليه بمراجعة كتاب بالفرنسية للأب لامنس اليسوعى عن حياة معاوية بن أبى سفيان، وخصوصا الفصل السابع عشر من هذا الكتاب حيث يبحث المؤلف فى تأديب الأمراء الأمويين»[٧].

---

(١) الأغانى ١٥: ٢٠٩ [طبعة الساسى].

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٠٦ .

(٣) البيان والتبيين ١: ١٤٤ .

(٤) محاضرات الأدباء ١: ٢٣ [طبع المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٦].

(٥) محاضرات الأدباء ١: ٢٠.

(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤ [طبع كلكتا].

(7) Etudes sur Le Regne Calife Omaiyade Mo'awia 1er Par. Henri Lammens S.J (Beyrouth 1908).

التعليم فى الدور العباسى:

لابد من القول أن الأمويين فتحوا الأقطار الواسعة من بلاد فارس إلى الأندلس، ورفعوا اسم العرب. وجعلوا لغة قريش لغة الدواوين بدلا عن اليونانية والقبطية والفارسية، وسكوا النقود، ونظموا أمور المملكة. وصفوة القول أنهم قاموا بالأعمال الأساسية الإدارية اللازمة لنمو الدول. والحق أولى أن يقال أن بنى أمية أعدوا البلاد للعباسيين، ولولا جهودهم فى الفتح والتنظيم والإدارة لما تمكن العباسيون من القيام بما قاموا به من تعضيد العلم وترجمة الكتب ونشر الثقافة العربية. فاز العباسيون بالخلافة وبنوا بغداد واحتكُّوا بالفرس ورفعوا شأن الموالى وخالطوا الأعاجم ولبسوا ألبستهم وأكلوا طعامهم. وهكذا ابتعدوا عن المحيط العربى المحصن وأصبحوا مكتنفين بمحيط جديد وحياة جديدة كان عليهم أن يختاروا بين أن يسايروها ويكيفوا أنفسهم بها أو أن يتقهقروا ويهلكوا. والمعروف أنهم اكتسبوا ثقافة الفرس وجاروا محيطهم الجديد وفتحوا الأبواب على مصاريعها لنبوغ الأعاجم. فكانت النتيجة من هذا الاقتران البيولوچى والعقلى بين العرب والفرس تلقيح القريحة وولادة العصر الجديد الذى نحن بصدده. هذا هو العصر العباسى الذى طربت فيه بغداد لشعر أبى نواس وأبى العتاهية. وتجلى فيه نبوغ أهل اللغة مثل سيبويه والخليل بن أحمد والكسائى. وحق له أن يفخر بأدب الجاحظ وعبد الله بن المقفع. أما فى علمى التاريخ والجغرافية فيكفى ذكر الطبرى والمسعودى واليعقوبى. فإن كان العصر العباسى هو عصر أبى نواس والجاحظ وسيبويه والطبرى وابن المقفع والمسعودى. فأين تعلم هؤلاء وأين علموا؟ وللإجابة على هذا السؤال نشرح الحالة المدرسية العلمية كما كانت فى القرن التاسع للمسيح.

وقبل الخوض فى هذا الموضوع لا نرى بدا من لفت الأنظار إلى عامل عظيم كان له اليد الطولى فى نشر العلم ونهضة العباسيين الأدبية، ألا وهو ظهور الورق فى أواسط آسيا والصين واستيراده منهما. وربما كان تأثير استعمال الورق فى النهضة العربية مثل تأثير فن الطباعة فى النهضة الأوربية فى أواخر العصور الوسطى. فلابد من القول إذاً أن الورق فى عصر العباسيين ساعد العلم والتعليم

كما ساعدت الطباعة «الرنسانس» والإصلاح وبالتالى المدارس العامة والمكاتب والصحافة.

نعم فى هذا الدور العباسى. فى أوائل القرن التاسع للمسيح، لما كان شارلمان وهو إمبراطور الغرب يتعلم الحروف مع الأولاد فى مدرسة قصره. كان خلفاء العباسيين يداعبون العلماء والأدباء. ولما كانت المدارس مفقودة فى أوربا فى ذلك العصر كانت منتشرة فى البلاد العربية.

أنواع المعاهد العلمية:

ظهرت الكتاتيب فى عصر بنى أمية وانتشر التعليم فى العصر العباسى بواسطة عوامل مختلفة فكانت المعاهد الآتى ذكرها:

(أ) المكتب أو الكتاب.

(ب) الجامع.

(ج) مجالس العلم أو مجالس الأدب.

(د) بيت الحكمة.

(هـ) المدرسة أو الكلية.

وهنا نشرح بالترتيب حالة المعاهد التعليمية.

الكتّاب:

كثيرا ما ورد ذكر هذا المعهد فى كتاب الأغانى الشهير. فقد أشار إلى مكتب فى الكوفة جاء إليه المؤدب لتأديب الأولاد[1]. وجاء ذكر مكتب آخر فى الكوفة فى حى بنى عبس[2]. وللكتاب معلمة ذكر فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ[3]. وقال ابن رسته أنه فى أردستان «كان يختلف معه إلى كتّابه ثمانون صبيا»[4]. ثم

(١) الأغانى ١٤ : ٤٩.

(٢) الأغانى ١٤ : ٤٩.

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٣٩.

(٤) الأعلاق النفيسة وهو مطبوع فى سلسلة كتب نشرها المستشرق الهولندى دى جويه تحت اسم Bibliotheca Geogoaphicorum Arabicorum Part Vll P. 153.

يزيد ابن رسته فى أن علقمة بن أبى علقمة «كان له مكتب يعلم فيه العربية والعروض والنحو. ومات فى خلافة المنصور»[١]. ثم إذا تصفحنا كتبا أخرى مثل معجم الأدباء لياقوت، وجدنا للمكتب الذكر الكثير نكتفى ببعض الشواهد فقط. «كان محمد بن أحمد الوشاء المتوفى سنة ٣٢٥ هجرية نحويا معلما لمكتب العامة»[٢]. ويقول على بن زيد المولود سنة ٤٩٩ هجرية «أسلمنى أبى إلى الكتاب»[٣]. وعمر بن أحمد بن العديم المولود سنة ٥٨٨ هجرية يخبرنا أنه لما بلغ سبعة أعوام «حمل إلى المكتب فأقعد بين يدى المعلم»[٤]. ومبارك بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ هجرية «كان يسكن قراح بنى رزين من بغداد وله به مكتب يعلم فيه الصبيان. وكان أولاد الأكابر يقصدون مكتبه من جميع بغداد لما شاع خبره وصلاحه. أدركت زمانه ورأيت مكتبه وكان مكتبا حفيلا مزدحما»[٥].

الجامع:

من المعلوم أنه إذا بحثنا عن الباعث الأكبر على إنشاء المدارس فى الأزمنة السالفة وجدنا أنه كان دينيًا. ولهذا السبب استعمل الناس أماكن العبادة مثل الكنائس والأديار للتدريس وقام رجال الدين بمهمة تعليم الأولاد. وذلك ما فعله النصارى، وهو ما فعله المسلمون، إذ جعلوا الجامع مكانا للتعليم واستخدموا رجال دينهم فى مصلحة تأديب الصبيان ونشر العلم على أنواعه. هذا، ولا حاجة إلى الإسهاب فى هذا الموضوع، والكل يعلم علم اليقين ما قامت به الجوامع من الخدمات الجليلة فى سبيل التربية والتعليم. فقد ألقيت الدروس فى الجوامع وهناك تحلق الفقهاء حول أساتذتهم، وفى الأروقة أقيمت المناظرات والمجادلات العلمية. ولم تقم الجوامع بهذه الخدمة التعليمية فى العصور الغابرة فقط، بل هى قائمة اليوم بخدمة التعليم كما يظهر من الألوف التى لا تزال تتدفق إلى أروقة وصحون

---

(١) ص ٢١٦.
(٢) معجم الأدباء ٦: ٢٧٧.
(٣) معجم الأدباء ٥: ٢٠٨.
(٤) معجم الأدباء ٦: ٣٦.
(٥) معجم الأدباء ٦: ٢٢٨.

الجامع الأزهر والجامع الأموى والمسجد الأقصى وجامع الجزار فى عكا كما تدفقت إلى جوامع بغداد وقرطبة والقيروان وفاس وغيرها من أمهات المدن العربية. أما اليوم، وقد طلق العلم الدين، وأصبحت المدارس والجامعات معاهد غير دينية، فقد استقلت فى أبنيتها ورجالها. غير أنه يستقبح من المدارس الحديثة والجامعات العصرية والمختبرات التى من الطراز الأخير ومن أساتذة اليوم أن تنكر الجميل وتنسى ما للجامع وما للكنيسة وما للصومعة وللشيخ وللراهب وللكاهن من الفضل على مؤسسات اليوم. فلولا الجامع والكنيسة لما ظهرت الجامعة. ولولا التنجيم لما ظهر الفلك. وأصل الطب خرافات كما أن أصل الكيمياء الشعوذة ومحاولة تحويل المعادن إلى الذهب. وخلاصة القول أن للجامع فضلا عظيما على العرب وعلى تعليمهم وتربيتهم، وأنه كان حلقة فى سلسلة التطور العلمى.

مجالس العلم ومجالس الأدب:

قال مربٍّ أمريكى: «إنما الكلية قرميّة حطب يجلس الأستاذ على إحدى طرفيها والطالب على الطرف الآخر». وهذا يفيد أن العلم والتعليم هما نتيجة احتكاك المعلم بالتلميذ وأن شخص المعلم لأهم العوامل فى التعليم. فهو أهم من البناء والأثاث والمعدات. فقد علّم سقراط فى الشوارع وفى الأروقة وفى الأماكن العمومية. ولو كان سقراط بيننا اليوم لرأيناه يتحدث إلى الناس فى المقاهى وفى الأندية وفى المسارح وفى الترام وفى القطار وفى المطاعم، ويغربل لهم الحق من الباطل. وصفوة القول أن التعليم الحقيقى يقوم بلا رسميات أو تكلف أو طرق ميكانيكية. مادام متوافرا ذلك العاملان اللذان لا غنى عنهما- أى التلميذ والمعلم. ومما امتاز به العرب فى أول عهدهم بالتعليم عدم الرسميات فى طلب العلم فقد وردوه أينما وجد، جامعا كان مكانه أو مكتبا، منزلا أو دكانا. وللإثبات نستشهد بقول صاحب كتاب الأغانى: «رأيت أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها»[1]. ويحكى «أن أبا (هبل) كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عمرة وكانت امرأة جزلة يجتمع الرجال

(١) الأغانى ٣: ١٢٥.

عندها لإنشاد الشعر والمحادثة»[1]. ويقول: «دخلت على الأمين حين أجلس مجلس الأدب، وهو ابن أربع سنين. وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم»[2]. وقال القوم: «كنا نأتي مجالس العلم»[3]. وحكى عن أحمد البيهقى (٤٧٠هـ) أنه كان «يقصده الناس إلى منزله للتعلم»[4]. ويروى عن آخر «جئته يوما فى مجلس الأدب والناس عنده وهو يملى»[5]. وأخبر عن إسماعيل بن حسن أنه «تفرد بالتصدر لإقرار العلوم على اختلافها فى منزل»[6]. فلا شك إذًا فى أن العرب علموا وتعلموا فى العصر العباسى تحت ظروف مختلفة، رسمية وغير رسمية. فكان منها المكتب والجامع والمنزل ومجلس الأدب ومجلس العلم ومصنع الجرار وهلم جرا. ويقول زيدان: «إن التعليم لم يكن خاصا بالمساجد فكثيرا ما كانوا ينشئون حلقات التدريس فى المارستانات أو الربط أو المنازل أو غيرها»[7]. ومما يظهر تقدير القوم لتعليم أولادهم ما فعله أهل بغداد لمن نبغ من الصبيان، ويروى صاحب الأغانى «فحذق بعض ما يحذقه الصبيان فحمل على دابة ونثر عليه اللوز فوقعت على عينه الصحيحة لوزة فذهبت»[8].

تلك إذًا حالة التعليم فى الدور العباسى، إذ تمكن الأولاد من التعلم فى المكاتب والمساجد، وإذ تعلم الكبار والصغار فى أماكن مختلفة. وخلاصة القول أن محيط العباسيين كان محيط علم وأدب ومباحثة ومجادلة، فمن كان له كفاية أو ميل إلى العلم تعلم ونبغ، لأن الوسائط كانت موفورة.

بيت الحكمة:

توافرت الوسائط فى عهد العباسيين لتعليم الأولاد، غير أنه لم يقتصر على تعليم الصغار بل وجدت الوسائل لتعليم الكبار أيضا. ولم يكن المكتب والجامع

(١) الأغانى ٦: ١٦٠.
(٢) الأغانى ١٧: ٣٧.
(٣) الأغانى ١٨: ١٠١.
(٤) معجم الأدباء ١: ٤١٥.
(٥) معجم الأدباء ١: ٣٩٠.
(٦) معجم الأدباء ٢: ٢٦٤.
(٧) تاريخ التمدن الإسلامى ٣: ١٩٣.
(٨) الأغانى ١٨: ١٠١.

سوى درجة فى السلم ارتقى الطالب منها إلى درجة أرقى. وبتعبير آخر نقول أنه بعد التعليم الابتدائى، وجد تعليم ثانوى أو أعلى. فكل من أنهى الدروس البسيطة وجد الوسائط اللازمة لمتابعة الدراسة على أساتذة وشيوخ، إما بصورة خصوصية أو فى جوامع. هذا، وقد أنشأ بنو العباس معهدا راقيا تلقى فيه الطلبة العلوم العالية مثل الرياضيات والفلك والحكمة وغيرها. وكان ذلك المعهد «بيت الحكمة».

ومن المؤسف أننا لم نقف على تاريخ لهذا المعهد الجدير بالاهتمام. غير أنه يمكننا جمع شتات بعض الأخبار عنه واستنتاج أشياء كثيرة منها. يزعم البعض أن مؤسس بيت الحكمة كان المأمون، غير أن ياقوت يصرح بأن بيت الحكمة كان فى حيز الوجود فى أيام الرشيد، إذ يقول عن علان الورّاق أنه «كان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة»[1]. ويمكننا استنتاج مستوى بيت الحكمة العلمى من مقدرة أساتذته ومديره. أما ما هو معلوم عن رئيس بيت الحكمة فهو قول ابن النديم إذ يذكر أن المأمون أوفد «سلم صاحب بيت الحكمة إلى بلاد الروم للترجمة»[2]. وروى ابن النديم أيضا أنه لما لم يتقن أحد المجسطى «ندب المأمون لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه»[3]. وفى الكلام عن الخوارزمى قال صاحب كتاب الفهرست أنه «كان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون وهو من أصحاب علوم الهيئة»[4]. إذًا كان سلم والخوارزمى ممن برعوا فى ترجمة العلوم اليونانية وتعليم العلوم الرياضية مثل المجسطى وعلم الهيئة. فمن ذلك نستنتج مقام هذين الأستاذين العلمى ومنه نحكم على مستوى بيت الحكمة. ثم إذا نظرنا إلى منهج التدريس فى بيت الحكمة وجدناه راقيا. وإليك ما يقوله ابن القفطى عن بنى موسى بن شاكر الذين طلبوا العلم فى هذا المعهد. «وخلف هؤلاء الأولاد الثلاثة صغارا فوصى بهم المأمون إسحق بن إبراهيم المصعبى وأثبتهم مع يحيى بن أبى منصور فى بيت الحكمة. فخرج بنو موسى بن شاكر نهاية فى

(١) معجم الأدباء ٥ : ٦٦.
(٢) كتاب الفهرست ص٢٤٣ راجع أيضًا الأطباء لابن أبى أصيبعة ١ : ١٨٧.
(٣) كتاب الفهرست ص٢٦٨.
(٤) كتاب الفهرست ص٢٧٤.

علومهم وكـان أكبرهم وأجلهم أبو جـعفر، محـمد وكان وافـر الحظ من الهندسة والنجـوم عـالما بإقليـدس والمجـسطى وجـمع كـتب النجـوم والهندسـة والعـدد والمنطق»[1]. فإن كـان خريج بيت الحكمـة قد أنهى هذه العلـوم فلا ريب فى أن ذلك المعهد كان يساوى الكلية فى يومنا الحاضر.

تأسس بيت الحكمة فى أيام الرشيد وعظم شأنه فى عصر المأمون غير أنه لم يرد له ذكـر بعد ذلك. ومن المحـتمل أنه لما زال نفـوذ المأمون وخـمدت نـهضـته الفكرية وبدعتـه فى الدين وفى الفلسفة، واستـولى الرجعيون علـى زمام الأمور، أقفل ذلك المعهد الجليل، أو عدلت خطته الأولى وقلب برنامجه، ظنا من القوم أن الحكمة والفلسفة والعلوم إنما هى منافية للدين.

وربما كانت «دار العلم» ببغداد التى يذكـرها ياقوت هى «بيت الحكمة» نفسه بشكل جديد، إذ يقول عن أبى القاسم بن ناقيا أنه دخل دار العلم على ابن فضال المجاشعى المغربى المتوفى سنة ٤٧٩ هجرية وهو يدرّس النحو فيها[2]. ثم نجد ذكرا لدار العلم فى وفـيـات الأعـيان لابن خلكـان إذ يروى: «قال أبو العـلاء المعـرى أحدثنى عبد السلام البصرى خازن دار العلم ببغداد»[3]. فإن كان الأمر كذلك فقد طالت حيـاة بيت الحكمة من زمن الرشيد إلى زمن أبى العـلاء، وذلك من أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن الحادى عشر المسيحى. وقد لا نكون من المبالغين إذا قلنا أن بيت الحكمة كـان من أقدم الكليات والجـامعات التى أسـست فى التاريخ، وإذا استثنينـا المعاهد العلمية فى الإسكندرية فى زمن البطالسـة فلا بأس من إعطاء بيت الحكمة الأسبقية على سائر كليـات العالم وجامعاته. يقال أن الأزهر كان أول جامعة، لأنه أسس قـبل جامعة بولونا فى إيطاليا وقبل جامعـات باريس وأكسفورد وبراغ وكامبـردج. فإذا صحت تسميـة بيت الحكمة بكلية أو جامعـة كان له السبق على الأزهر أيضا.

---

(١) تاريخ الحكماء لابن القفطى ص ٤٤١ [طبع ليبسك].
(٢) معجم الأدباء ٥: ٢٩٤.
(٣) ابن خلكان ٢: ٤٦٢.

نرى إذًا أن النهضة العلمية الأوربية التى نسفت عقلية العصور الوسطى بدأت فى بغداد، وأن أسس الجامعات وضعت على ضفاف دجلة ثم امتدت إلى ضفاف السين. وسبق المأمون وإسحق بن حنين وسلم والخوارزمى رواد الرنسانس أمثال دانتى وبنزارك وأرازمس.

المدرسة:

يقول زيدان فى بحثه عن المدارس فى الإسلام ما يأتى: «وقد أجمع المؤرخون المسلمون تقريبا على أن أول من بنى المدارس فى الإسلام نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلطان السلجوقى فى أواسط القرن الخامس للهجرة. ومن الغريب أن ينقضى العصر العباسى ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف مواضيعه ولم ينشئ المسلمون مدرسة أو أن ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها فى تاريخهم»[1]. ومع هذا فقد ذكر زيدان أنه كان للمسلمين عدة مدارس قبل عهد نظام الملك، ولعل السبب فى اشتهار سبق نظام الملك فى إنشاء المدارس الإسلامية أنه أول من بنى مدرسة كبرى فى بغداد وجعل التعليم فيها مجانا وفرض لتلامذتها الأرزاق والمعاليم.

أما الآن فلا بأس من تمحيص هذه الآراء والوقوف على الحقيقة.

ولذا نسأل أولا: أصحيح أن نظام الملك كان أول من بنى المدارس فى الإسلام؟

ثانيا: هل انقضى العصر العباسى ولم ينشئ المسلمون مدرسة؟

والجواب على هذين السؤالين يتوقف على ما نفهمه بكلمة «مدرسة» فإن عنينا بالمدرسة المعهد العلمى المعروف الآن عند العامة مثل المدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية إلخ، كان زيدان ومن قال قوله مخطئين، لأنه وجدت معاهد علمية ومدارس قبل نظام الملك. وقد أنشئت المدارس قبل انقضاء العصر العباسى وإليك الأدلة:

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ٣: ١٩٣.

(أ) أن العباسيين أسسوا بيت الحكمة فى عهد الرشيد والمأمون ١٧٠- ٢١٨هـ.

(ب) أنشأ الفاطميون الأزهر سنة ٣٥٩هـ وأكملوا بناءه سنة ٣٦١هـ[١].

(جـ) كان للفاطميين معهد علمى آخر يسمى «دار العلم» أنشىء سنة ٣٩٥هـ.

(د) ذكر ياقوت أنه كان معهد يسمى خزانة الحكمة يقصده الناس من كل بلد فيقيمون فيه ويتعلمون منه صنوف العلم والكتب مبذولة فى ذلك لهم[٢]. وكان ذلك على قول ياقوت فى أيام المعتمد أى فى القرن الثالث (٢٥٦- ٢٧٩هـ) وقد روى ياقوت أيضا فى كلامه عن جعفر الموصلى المتوفى سنة ٣٢٣هـ ما يأتى: «وكانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم لا يمنع أحدا من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب. وإن كان معسرا أعطاه ورقا وورّقا تفتح فى كل يوم. ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ويجتمع إليه الناس. وأملى عليهم من شعره ومن شعر غيره ومصنفاته، ثم يملى ما حفظه من الحكايات المستطابة وشيئا من النوادر المؤلفة وطرفا من الفقه وما يتعلق به»[٣]. وذكر ياقوت أيضا أن أحمد بن عبد الملك بن أحمد (٣٨٨- ٤٧٠هـ) كان يؤذن على منارة المدرسة البيهقية[٤]. والخلاصة أن العباسيين سبقوا نظام الملك فى إنشاء المعاهد العلمية، إذ توفى هذا الوزير سنة ٤٨٦ هجرية، مع أن بيت الحكمة أسس فى أواخر القرن الثانى وأنشئت «خزانة الحكمة» فى القرن الثالث وبنى الأزهر ودار العلم فى القرن الرابع للهجرة. ولإتمام الفائدة نستشهد بقول السبكى[٥] عن نظام الملك. قال: «وشيخنا الذهبى زعم أنه أول من بنى المدارس. وليس الأمر كذلك فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك.

(١) الخطط للمقريزى ٤: ٤٩ [طبع مطبعة النيل سنة ١٣٢٦].
(٢) معجم الأدباء ٥: ٤٦٧.
(٣) معجم الأدباء ٢: ٤٢٠.
(٤) معجم الأدباء ١: ٢١٩.
(٥) طبقات الشافعية ٣: ١٣٧.

والمدرسة السعدية بنيسابور أيضا بناها الأمير نصر بن سبكتكين ومدرسة ثالثة بنيسابور. . ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت لأبى إسحق الإسفراييني. وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة فإنه لم يتضح لى هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أولا والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم».

مدارس نظام الملك:

يتبين مما مر أن نظام الملك الطوسى لم يكن أول من أنشأ المدارس فى الإسلام، هذا إذا فسرنا المدرسة بمعناها المعروف اليوم. أما إذا عرفنا «المدرسة» بتعريفها الفنى العربى فلا شك أن نظام الملك كان من أول من فتح «المدارس» فى الإسلام إن لم يكن الأول. وربما كان التشويش الذى وقع فيه بعضهم ولم يخل منه ذهن زيدان نتيجة عدم تمييز معنى المدرسة. وإذا كان الأمر كما ذكر وجب علينا أن ننظر إلى «المدرسة» غير نظرتنا المعتادة. فمدرسة نظام الملك كانت معهدا جديدا فى الإسلام، وإليك تحليل هذا المعهد الجديد:

الصبغة السياسية «للمدرسة»:

من المعلوم أن سلطة الخلفاء تضعضعت حينما دخل الموالى من أتراك وفرس وأكراد فى خدمة العباسيين. ولما قبض هؤلاء على زمام الأمور السياسية بقوا فى حاجة ماسة إلى اكتساب ثقة العامة؛ ولهذا السبب تفانى أمراء الترك والأكراد وغيرهم فى خدمة الدين الحنيف، وبذلوا قصارى جهدهم فى مكافحة مذهب الشيعة وتأييد المذهب السنى - مذهب الدولة العباسية الرسمى - فكانت خطتهم إرضاء العامة وتخدير أعصاب رجال الدين. ولتنفيذ هذه الخطة أنفقوا الأموال الطائلة على أهل الدين وأكثروا من فتح المدارس، وكان نظام الملك رجلا ذكيا عاقلا ولم يغرب عن باله أن كونه فى خدمة دولة سلجوقية ربما حال بينه وبين تنفيذ خطته وخطة أسياده بنى سلجوق. فللمحافظة على مركزه وعلى رؤسائه فتح المدارس والربط والزوايا؛ لأنه فى فتحها استخدم عددا وافرا من العلماء والفقهاء وطلاب الوظائف. وجدير بالذكر أن هذا الوزير جاء بشىء جديد فى الإسلام وهو صرف المعاليم على الطلبة والشيوخ. وغير خاف أن الدنيا لا تخلو ممن يضحون

بكل مبدأ فى سبيل التوظف وقبض العمالة. ولم تخل البلاد العربية من هؤلاء فى عهد نظام الملك، إذ امتلأت المدارس والربط والزوايا والمارستانات بالذين قبضوا معاش نظام الملك وضربوا بسيفه. وهذا يرينا أن «المدرسة» كانت آلة لنشر الدعاية السياسية. هذا، وكما استخدم معاوية الشعراء والأدباء لتنفيذ خطته، وكما يستخدم بعضهم اليوم الجرائد لبث دعوتهم ولاستمالة الرأى العام، هكذا استخدم نظام الملك «المدرسة» لمآربه السياسية، ولا بأس من القول أن نظام الملك كان أدهى من غيره فى اختياره المدرسة آلة لترويج سياسته، فلا شك أن المدارس وعقول الشبيبة لأساس أمتن للدعاية من الشعراء أو الأدباء والجرائد. ومن البديهى أن المال كان من أكبر العوامل التى أنجحت مشروع هذا الوزير. ولقد تستحسن بعض الحكومات فى يومنا الحاضر أسلوب نظام الملك، فتتخذ المدارس والبرامج وكتب التدريس ودور المعلمين آلات لغرس مبادئها السياسية. فها هم الفرنسيون يتبعون هذه الخطة فى بلادهم وفى مستعمراتهم. وها هم البلاشفة يرغبون فى تأييد المذهب الشيوعى بواسطة المدارس. وهناك حكومات أخرى تأتى العمل عينه لا حاجة بنا إلى ذكرها.

الصيغة المذهبية:

لا ريب فى أن «مدارس» نظام الملك كانت معاهد خلقت لتأييد المذهب السنى ولمكافحة الشيعة على أنواعها. ولم ينفرد نظام الملك بفتح المدارس لهذا الغرض، بل حذا حذوه صلاح الدين وغيره من السلاطين والأمراء. والمدرسة الصلاحية فى القدس أكبر شاهد على هذا. ومما يثبت أن الغرض من هذه المدارس كان مذهبيا الحادثة الآتية كما أثبتها ياقوت الحموى. قال: «على بن محمد النصيحى درس النحو بالنظامية بعد الشيخ أبى زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى، ثم اتهم بالتشيع فقيل له فى ذلك. فقال: «لا أجحد أنا متشيع من الفَرْق إلى القدم» فأخرج من النظامية ورتب مكانه الشيخ أبو منصور موهوب. فكان المتعلمون يقصدون داره التى انتقل إليها للقراءة عليه»[1]. ومن يقرأ هذه

(١) معجم الأدباء ٥: ٤١٥.

الحادثة يظن نفسه قارئا صحف اليوم فى الشرق والغرب. ولا فرق بين أستاذ النظامية على بن محمد وبين بعض أساتذة اليوم الذين يرغب إليهم أن يستقيلوا من مدارسهم لعقيدة اعتقدوها، أو مذهب ناصروه يخالف مذهب المدرسة الرسمى. وعلى هذا الأمر يتفق المسلمون مع النصارى ويجارى الشرق الغرب. لقد أخرج الأستاذ على بن محمد من النظامية لأنه اتهم بالتشيع، كما يطرد الأساتذة اليوم لأنهم يتهمون بالاشتراكية أو بالكفر أو بمناصرة مذهب النشوء أو بالانتصار لمعاوية ضد على وهلم جرا. ولا يسعنا إلا الإعجاب بالأستاذ على بن محمد لرجولته واستقلاله الفكرى، غير أن النظامية لم يمكنها إبقاءه فيها إذ لم يكن غرضها تثقيف العقول وتربية الرجال على تحكيم عقولهم، بل إشرابهم حب المذهب السنى والهتاف بنظام الملك.

الصيغة الأميرية:

سبق أن قلنا أن الأمويين والعباسيين شجعوا العلم وفتحوا بعض المدارس غير أن مدارسهم لم تكن معاهد أميرية منظمة، ينفق عليها من بيت المال، ويعين مدرسوها من قبل الحكومة، ويقرر برنامجها فى الدوائر الرسمية. نعم إن المأمون حاول ضبط منهج التدريس بامتحانه المعلمين وإكراهه إياهم على تعليم الطلبة خلق القرآن، غير أن هذا لا يجيز لنا القول بأن المدارس فى أيام المأمون كانت مدارس أميرية. أما مدارس نظام الملك فكانت أميرية إذ كان لها أوقاف وميزانية، وأنفق عليها من بيت المال وعين مدرسوها من قبل الحكومة. وأمر المعاليم كان أمرا جديدا فى شؤون التعليم، إذ كان يعيش المعلم سابقا على ما يأخذه من الطلبة من الأجرة بصورة خصوصية. وأما نظام الملك فألغى ذلك وقدر المعاليم للأساتذة وللطلبة. وصفوة القول أن نظام الملك قلب المدارس من حالتها الخصوصية إلى حالة أميرية. ومما يؤيد هذا الزعم كلام السبكى المتقدم وهو ما يأتى: «وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة فإنه لم يتضح لى هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أو لا، والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم»[1].

(١) طبقات الشافعية ٣: ١٣٧.

وفتح نظام الملك نظامياته فى مدن عديدة، منها بغداد والبصرة والموصل وأصبهان ونيسابور وبلخ وهراة. ولا مراء فى أن هذه المدارس أمدت الدولة بالقضاة والمدرسين والكتبة والموظفين الإداريين الذين لا يستغنى عنهم فى دولة واسعة. ويؤخذ مما سبق أن «المدرسة» ظهرت فى الإسلام بعد ما انحلت قوى العرب، وصارت مقاليد أمور الخلافة بيد الموالى. وأن «المدرسة» كانت معهدا سياسيا مذهبيا أميريا. وأما مستوى المدارس العلمى فكان يقرب من مستوى المدارس الثانوية اليوم، مثل الليسيه فى فرنسا والجمنار فى ألمانيا. ويقول الأب إنستاس الكرملى فى هذا الصدد: «إن المراد بالمدرسة ما كان يريد به أهل بغداد فى سابق الزمان، أى ما يقابله اليوم المكتب الثانوى أو المكتب العالى، وليس المراد به أبدا الكتاب»[1]. وفى الختام نستشهد برأى المستشرق فان برشم فى أمر المدارس إذ قال:

La madrassa et Ie´cole de tradition qui remplacent alors les" vieilles e´coles de science (dar al- ilm) sortes d'academies qui florissaient sous les Abbasides et les Fatimides, et ou´ I'on enseignait a cote du droit et des sciences religieuse l'astronomie, les mathematiques, la medicine, la philosophie, bref toutes les sciences"[2].

وخلاصة هذا الرأى أن «المدرسة» ودار الحديث قامتا مقام المعاهد العلمية القديمة التى كانت تسمى بدور العلم. وكانت هذه المعاهد التى عظمت فى عهد العباسيين والفاطميين تشبه الأكاديمية - ذلك المعهد الذى درست فيه الدروس العلمية مثل الفلك والرياضيات والطب والفلسفة، كما درست الدروس الشرعية.

إذاً اعتاض الأعاجم بالمدارس ودور الحديث عن بيوت الحكمة ودور العلم التى أنشأها العرب. أى أنهم اتخذوا خطة رجعية فى إهمالهم المعاهد التى علمت العلوم الطبيعية مثل الطب والفلك والفلسفة، وفتحهم المدارس لتعليم العلوم الشرعية واللغوية، فضلا عن بث الدعوة السياسية المذهبية.

---

(١) المشرق - السنة ١٠ : ٣٨٥ [مدارس الزوراء فى عهد الخلفاء].

(2) Corpus Inscriptionem Arabicorum p. 100.

لقد نظرنا فى أمر هذه المدارس نظرة إجمالية، أما الآن فلا بأس من البحث فى شأن مدرسة واحدة لكى نقف على أحوالها بقدر ما تساعدنا المراجع التى بين أيدينا. ولا جدال فى أن أهم المدارس آنئذ النظامية فى بغداد. وأنه، وإن لم يكن لها تاريخ خاص بها، يمكننا جمع شىء من أخبارها من مصادر مختلفة.

قال ابن خلكان: «وذكر أبو الحسن محمد بن هلال بن الصافى فى تاريخه أن المدرسة النظامية بدئ بعمارتها فى ذى الحجة من سنة سبع وخمسين وأربع مائة (١٠٦٤م). وفتحت يوم السبت عاشر ذى القعدة من سنة تسع وخمسين. وكان نظام الملك أمر أن يكون المدرس بها أبا إسحق الشيرازى وقرروا معه الحضور فى هذا اليوم للتدريس، فاجتمع الناس ولم يحضر، وطلب ولم يوجد، فنفذ إلى أبى نصر بن الصباغ فأحضر ورتب بها مدرسا. وظهر الشيخ أبو إسحق فى مسجده ولحق أصحابه من ذلك ما بان عليهم وفتروا عن حضور درسه، وراسلوه إن لم يدرس بها مضوا إلى ابن الصباغ وتركوه. فأجاب إلى ذلك وعزل ابن الصباغ. وجلس أبو إسحق يوم السبت مستهل ذى الحجة فكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوما»[1].

وفى الكلام عن أبى إسحاق الشيرازى يذكر ابن خلكان أنه «لما بنى نظام الملك مدرسته ببغداد سأله أن يتولاها فلم يفعل»[2]. هذان شاهدان على أن عالما مثل أبى إسحق الشيرازى لم يستحسن فكرة إنشاء النظامية وأبى أن يدرس فيها. وهذه حسنة تذكر للشيخ أبى إسحق تظهر أنه كان أستاذا ذا مبدأ لم يغرّه التقرب إلى الوزير. ولم يُعمِ المال بصره، ولم يكترث للنفوذ الاجتماعى الذى ربما حصل عليه من التدريس فى مدرسة الوزير نظام الملك. غير أنه لا يسعنا إلا أن نتساءل عن الأسباب التى دفعت بالشيخ أبى إسحق إلى رفض التدريس فى النظامية، فلماذا رفض الأستاذ أن يدرس؟ ولماذا فضل التدريس فى مسجد؟ ولِمَ اضطره

(١) ابن خلكان ١ : ٣٨٢.

(٢) ابن خلكان ١ : ٥.

تلاميذه أخيرا إلى الرجوع إلى النظامية؟. أما رفض أبى إسحق التدريس فى النظامية فربما كان سببه ما ذكره ابن خلكان فى ترجمة حياة نظام الملك حيث قال: وشرع فى عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربعمائة. وفى سنة تسع وخمسين جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ أبو إسحق الشيرازى - رحمه الله تعالى - فلم يحضر. فذكر الدرس أبو نصر بن الصباغ.. وكان الشيخ أبو إسحاق إذا حضر وقت الصلاة خرج منها وصلى فى بعض المساجد وكان يقول: بلغنى أن آلاتها غصب»[1]. إذاً لم يوافق أبو إسحق على مبدأ النظامية لأنه بلغه أن أكثر آلاتها غصب. وزد على ذلك أن أبا إسحق ربما كان على شىء من المحافظة على القديم والارتياب من المعاهد الجديدة، أى أنه كان من العلماء الذين ارتابوا فى أمر النظاميات، وخافوا على العلم الحقيقى، عندما بدأت الدولة فى إعطاء المعاليم، وإنفاق الأموال على الفقهاء، وكثرة الجراية. ولعل بعض العلماء كانوا أشرف من أن يبيعوا علمهم ووجدانهم واستقلالهم الفكرى بالمعاليم والجرايات والوظائف.

ومما ينص عليه حاجى خليفة صاحب كشف الظنون من هذا القبيل ما يأتى: «ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به، ولما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية، والأنفس الذكية، الذين يقصدون العلم لشرفه، والكمال به، فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم. وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخسَّاء وأرباب الكسل»[2].

تلك هى أسباب امتناع الشيرازى عن التدريس فى النظامية. أما الطلبة فلم أكرهوه على الرجوع؟ وللإجابة نقول أنه ربما كان الدافع الأكبر لعمل الطلبة مسألة المعاليم، ووفرة الجرايات والرواتب فى النظامية، وعدمها عند الشيرازى.

ومن المعلوم أن كثيرا من الطلبة فى يومنا الحاضر إنما يؤمون المدارس والجوامع للتعيش وأخذ الجراية، لا لطلب العلم أو التلذذ بالأعمال العقلية.

---

(١) ابن خلكان ١: ١٨٠.

(٢) كشف الظنون ١: ٥٣ [طبع ليبسك].

وندعم رأينا هذا بقول المقريزى عن إحدى المدارس فى القاهرة - المدرسة الناصرية - أنها «لولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت»[1].

فتحت النظامية أبوابها سنة ٤٥٩هجرية (١٠٦٦م) وبقيت مفتوحة نحو ثلاثة قرون. إذ زارها ابن بطوطة المتوفى سنة ١٣٧٨م. وهناك ما قاله هذا الرحالة عنها: «وفى سوق الثلاثاء المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تضرب بحسنها»[2].

وكان ممن درّس بالنظامية عدا أبى إسحق الشيرازى، الإمام الغزالى، وبهاء الدين ابن شداد المترجم لصلاح الدين، والمبارك بن المبارك، وعلى بن محمد، والشيخ أبو زكريا يحيى بن على الخطيب. ويذكر ياقوت أن الأبيوردى كان ولى خزانة الكتب فى النظامية[3]. وكان على بن منصور كاتبا مقيما فيها. ولا بأس فى هذه المناسبة من المقابلة بين على بن محمد الذى درس النحو بالنظامية وأقيل منها لأنه كان متشيعا، والوجيه الذى «كان حنبليا ثم صار حنفيا. فلما درّس النحو بالنظامية صار شافعيا»[4]. فيظهر من هذه الحوادث الثلاث - حادثة الشيرازى وامتناعه عن التعليم فى المدرسة النظامية لأن بعض آلاتها كانت مغتصبة، وأمر الأستاذ على بن محمد الذى طرد منها لأنه كان متشيعا ولم يرد أن يغير مبدأه، وإبقاء الوجيه الذى إنما صار شافعيا للحصول على وظيفة مدرّس النحو- أن محيط النظامية وخطتها لم يكونا على حسب ما يتطلبه مبدأ مدرسة راقية. فإننا نشتمّ من هذه الأحوال رائحة السياسة والتذبذب.

هذا من جهة أساتذتها، أما برنامجها فلا ريب فى أنه اختلف كل الاختلاف عن برنامج الدروس فى بيت الحكمة وفى دار العلم. أما الدليل على اختلاف البرنامج فى النظامية عما كان عليه فى بيت الحكمة وفى دار العلم فهو أولا

(١) الخطاط المقريزية ٤: ١٩٣.
(٢) ابن بطوطة ص ١٤١ [طبع مصر].
(٣) معجم الأدباء ٦: ٣٤٣.
(٤) معجم الأدباء ٦: ٢٣٥.

سلبى، إذ لم نعثر على ذكر للعلوم الطبيعية فى النظاميات، بينما وقفنا على أخبار عديدة تدل على تدريس الفقه والعلوم الشرعية فيها. وثانيا، نستنتج شيئا عن المنهج من الأساتذة الذين درسوا فى النظامية، إذ كانوا رجال شرع ولغة وجدل ومنطق، لا مدرِّسى فلسفة وحكمة وفلك وطب ورياضيات.

ونستشهد فى الختام بقول الرحالة الأندلسى ابن جبير فى النظامية، إذ زارها فى أثناء الحروب الصليبية وفى عهد صلاح الدين. فقال عن بغداد: «والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية. وما منها مدرسة إلا وهى يقصر القصر البديع عنها. وأعظمها وأشهرها النظامية... ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء والمدرسين بها. ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم. ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد.. فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعتهم من واعظ يتكلم فيه.. فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، والمشار إليه بالتقدم فى العلوم الأصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة، فتوقّوا وشوّقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونفحات محرجة مطربة. ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف فى أفانين من العلوم فى تفسير كتاب الله - عز وجل - وإيراد حديث رسول الله ﷺ والتكلم على معانيه.

ثم رشفته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر. ودفعت إليه عدة رقاع فيها. فجمعها جملة فى يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ المساء فنزل وافترق الجميع[1].

دار العلم أو دار الحكمة:

لقد جئنا بشىء من تاريخ بيت الحكمة الذى أنشأه العباسيون وبشىء من أخبار النظامية مدرسة الوزير نظام الملك. أما الآن فنرى من المناسب أن نأتى بما وقفنا عليه من أخبار دار العلم لإكمال هذا المثلث العلمى.

(١) رحلة ابن جبير ص١٩٧ [طبع مصر].

زاحم الفاطميون أولاد عمهم العباسيين على الخلافة، ولم يكتفوا بالمزاحمة السياسية بل تعدوها إلى المنافسة الاجتماعية والمباراة العلمية. وربما كان تأسيس دار العلم فى القاهرة ضربا من المنافسة أو المحاكاة لبيت الحكمة فى بغداد. وعلى كل حال فقد كانت دار العلم تشبه بيت الحكمة فى منهجها، إذ درّس فيها الطب والرياضيات والمنطق وغيرها من المواضيع. أما المعلومات عن دار العلم فهى أوفر لدينا منها عن بيت الحكمة، وهذا فضل يذكر للمقريزى[1]. وخلاصة أخبار المقريزى عن هذا المعهد هى:

١- أن الحاكم بأمر الله أمر ببناء دار العلم فى باب التبانين بالقاهرة سنة ٣٩٥هـ.

٢- بقيت دار العلم مفتوحة إلى عهد الأفضل بن أمير الجيوش، فعلى هذا تكون قد عاشت من عهد الحاكم بأمر الله إلى وقت انقراض الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين سنة ٥٦٧هجرية. وكانت تلك المدة نحو قرن وثلاثة أرباع القرن.

٣- جلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء.

٤- كان فيها خزانة كتب نفيسة «وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم يُر مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك».

٥- كانت دار العلم ديمقراطية تفتح أبوابها لجميع الطبقات «وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم».

٦- كانت دار العلم مجهزة باللوازم التامة «فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قُوّام وخدام وفراشون وسموا بخدمتها.

---

(١) الخطط المقريزية ٢: ٣١٣ و ٣٣٤.

٧- كان لدار العلم أوقاف فى فسطاط مصر. وقد ذكر دار العلم ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه فى كل سنة العين المغربى مائتان وسبعة وخمسون دينارا». وأما تفصيل ميزانية دار العلم أو دار الحكمة فكان على المنوال الآتى ذكره:

- ١٠ دنانير ثمن الحصر العبدانى.
- ٩٠ دينارا لورق الكاتب (يعنى الناسخ).
- ٤٨ دينارا للخازن.
- ١٢ دينارا ثمن الماء.
- ١٥ دينارا للفراش.
- ١٢ دينارا للورق والحبر والأقلام ولمن ينظر فيها من الفقهاء.
- ١ دينار لمرمة الستارة.
- ١٢ دينارا لمرمة ما عسى أن ينقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها.
- ٥ دنانير ثمن لبود للفراش فى الشتاء.
- ٤ دنانير ثمن طنافس للشتاء.

أضف إلى هذا المدد المالى أن الحاكم بأمر الله كان يناصر دار العلم بنفوذه الأدبى. «قال وفى سنة ثلاث وأربعمائة أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى بن سعيد، وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله. وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه، ثم خلع على الجميع ووصلهم». وهذه بعض الحسنات للحاكم بأمر الله التى قلما يذكرها المؤرخون، ولعلها تكفر عن بعض ذنوبه وأعماله الغريبة.

تلك بعض أخبار هذا المعهد الذى لا شك فى أنه خدم زمانه مدة طويلة إلى أن جاء الأفضل وخاف على عقول الناس من الفساد فأغلقه. «فاعتمد بركات من

جملتهم أن استفسد عقول جماعة وأخرجهم عن الصواب، وكان ذلك فى أيام الأفضل. فأمر للوقت بغلق دار العلم والقبض على المذكور فهرب».

أما السبب الحقيقى فى إغلاق دار العلم نهائيا فربما كان راجعا إلى خطة صلاح الدين فى مكافحته مذهب الشيعة وإغلاق كل مدارسهم، وفتحه مدارس تؤيد مذهب السنة. ذهبت دار العلم كما ذهبت أختها بيت الحكمة، وقام مقامها مدارس درَّست العلوم النقلية واللسانية والدينية والشرعية، وقضت على الحكمة والفلسفة والرياضيات والطب والعلوم والطبيعة على وجه الإجمال. وبذهاب بيت الحكمة ودار العلم ذهبت الكليتان الحقيقيتان من البلاد العربية، ولم يقم من ذلك الوقت إلى الآن معاهد عربية تقوم مقامها. على أن هنالك أدلة تشير إلى قرب تأسيس معهد علمى عربى حديث إما على ضفاف النيل، أو على ضفتى دجلة وهذا يعيد، دون ريب، مجد دار العلم وبيت الحكمة.

عدد المدارس:

يستحيل علينا بالطبع الوقوف على العدد التام لكل المدارس العربية، ونريد هنا بالمدارس معناها الفنى، أى المعاهد الثانوية أو الكليات، غير أننا نبين ما عثرنا عليه فى درسنا. ولا مراء فى أنه يوجد عدد وافر من المدارس لم يعثر عليه، وسيكشف الزمان والبحث أمره. ومما يزيد هذه الصعوبة قلة الكتب فى هذا الموضوع، إذ لم نقف إلا على كتب ثلاثة تعد المدارس وهى الخطط المقريزية التى بحثت عن أمور مدارس القاهرة، وكتاب فى مدارس دمشق لعبد القادر النعيمى اسمه «تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى ما فى دمشق من المدارس»، وتاريخ مجير الدين المسمى «بالأنس الجليل» حيث يعد مدارس القدس الشريف. أما الأندلس فلم تؤسس فيها المدارس وهذا لا يعنى بالطبع أن الحالة العلمية فيه لم تكن راقية، إنما تلقى أهل الأندلس العلوم العالية فى الجوامع والمساجد. قال المقرى: «ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم فى المساجد بأجرة»[1]. وربما كان سبب عدم ظهور «المدرسة» فى الأندلس ابتعاد تلك

(١) نفح الطيب ١: ١٠٢ [طبع المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٤هـ].

البلاد عن تأثير الموالى والأعاجم. الذين قاموا بتأسيس «المدارس» لأغراضهم كما مر. أى أن التعليم سار فى الأندلس على الطريقة التى كانت متبعة في العراق والشام ومصر قبل ذهاب الأمر من يد العرب.

وأما المدارس التى عثرنا عليها فهى هذه:

١٣٣	فى دمشق	١٤	فى حلب
٨٩	فى القاهرة	١٢	فى طرابلس الشام
٤٠	فى بغداد[١]	٩	فى الموصل
٤٤	فى القدس		

وزيادة على ما مر وقفنا على ذكر للمدارس فى المدن الآتية:

مرو ٣	حمص
الإسكندرية	حماة ٣
قرطبة	مكة
نيسابور ٢	مكناسة
سمرقند	بلرم
خوارزم	دمياط
هراة	دنيصر
كربلاء	الرها
ماردين	رأس
واسط	العين
نصيبين ٢	تونس
	تلمسان

فيكون مجموع المدارس التى وجدنا لها ذكرا ٣٦٨..

(١) يقول ابن جبير «والمدارس ببغداد نحو الثلاثين» ويستشهد الأب إنستاس الكرملى فى «الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون» لياسين العمرى الموصلى أنه كان فى بغداد ٣٨ مدرسة و١٨ دار حديث و٤٠٠٠ مسجد.

obeikandl.com

الأوقاف المدرسية:

سبق أن قلنا أن من اهتم أولا بمعاهد التعليم هم رجال الدين والعلم بصورة خصوصية، وأنهم إذا تقاضوا أجرا على التعليم إنما فعلوا ذلك بحسب اتفاق خاص. ومع مساعدة الخلفاء والأمراء والأعيان للعلم والعلماء وأمر التعليم، لم تكن الإعانة منظمة، قائمة على خطة أو أساس حتى زمن نظام الملك الذى وضع أساسا قانونيا لمالية المدارس، ورتب ميزانيتها، فبعد أن كان المدرس يدرس مجانا أو فى مقابل أجر يتقاضاه من التلاميذ، أصبح يأخذ معلوما أو راتبا فى كل شهر. وبعد أن طلب الناس العلم فى الجوامع، أصبحوا يدرسون فى المدارس. ومن حسنات النظام الجديد أن أبواب العلم فتحت للفقراء، إذ عُنيت أوقاف المدارس بتدريسهم وأكلهم وشربهم ومنامهم ولبسهم واستحمامهم ومعالجتهم فى بعض الأحيان. ولا شك أن حبس الأوقاف على المدارس خطة قويمة لضمان حياتها. وغير خاف أن الأمر لا يستتب للمعاهد العلمية ما لم يكن لها ريع منظم مستمر، إما من اوقاف أو من مالية حكومية.

ومن المعروف أنه لو كلف طلبة العلم اليوم دفع كل نفقات تعليمهم، لما تعلم إلا الأغنياء منهم. وفى الحق أن هذه مأثرة خلدت ذكر نظام الملك، إذ كان السابق فى مسألة تحويل المدارس ولم ينشىء من جاء بعده من الأمراء مدرسة إلا وحبس عليها الأوقاف الكافية للقيام بنفقاتها، فإذا أخذنا صلاح الدين مثلا وجدناه يقف الأراضى الواسعة والحوانيت والأسواق على سد حاجات المدارس. وقد ذكر المقريزى عن المدرسة السيوفية فى القاهرة «وقفها صلاح الدين وعين للتدريس فيها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى، ورتب له فى كل شهر أحد عشر دينارا، وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده».

وهذا ما جاء فى كتاب الوقف «الحمد لله وبه توفيقى، وتاريخ هذا الكتاب تاسع وعشرون شعبان سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. ووقف على مستحقيها اثنين وثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان»[1]. ووقف صلاح الدين أيضا سوق العطارين فى القدس على المدرسة الصلاحية.

(١) الخطط المقريزية ٤: ١٩٦ .

وإذا راجعنا كتاب الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل، وجدنا ذكر نحو أربعين مدرسة، ولكل منها أوقاف خاصة بها[1]. وكثيرا ما يذكر ابن جبير وابن بطوطة ما كان للمدارس التى زارها من الأوقاف. وهاك كلام ابن جرير: «ولهذه المدارس (فى بغداد) أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها ويجرون على الطلبة ما يقوم بأودهم، ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم»[2]. وما انطبق على بغداد انطبق أيضا على دمشق. ويؤيد هذا المقال مشاهدات ابن بطوطة فى الشام إذ قال: «وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش من قيام بمسجد أو قراءة بمدرسة... ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة»[3]. ثم إن حالة الأزهر من حيث كثرة أوقافه وجرايته لخير دليل على جود العرب على العلم وسخائهم على العلماء.

المعدات المدرسية:

كان ينقص المدارس العربية ما هو ضرورى اليوم للمدارس العصرية من مقاعد ومناضد وألواح خشب وما شاكل ذلك. وبما أنها عاشت قبل اختراع الطباعة، فقد كان يعوزها أيضا الكتب المدرسية والخرائط والمعاجم. ولا ريب فى أن عدم توافر الكتب المدرسية أدى إلى إزعاج الطلبة وعاق سير طلب العلم.

جلس الطلبة يومئذ على الحصر حلقات حلقات، وأخذوا ما أملى عليهم أساتذتهم، ونسخوا المخطوطات بأنفسهم. إذًا كانت الأدوات المدرسية مفقودة من المدارس العربية، غير أنه كثيرا ما نجد ذكرا لخزائن الكتب، وهذا خير ما تجهز به المدارس. ومنها اثنتا عشرة خزانة كتب فى مدارس القاهرة مثل الظاهرية والفاضلية والسابقية والطيبرسية وغيرها. أما الفاضلية فيذكر المقريزى أن خزانتها احتوت على «مائة ألف مجلد وذهبت كلها، وكان أصل ذهابها أنه لما وقع الغلاء فى مصر فى سنة أربع وتسعين وستمائة، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصورى مسهم

(١) الأنس الجليل ٢: ٣٨٥- ٣٩٩ .
(٢) ابن جبير ص ٢٠٨.
(٣) ابن بطوطة ١: ٦٣ .

الضر، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب»[1]. وورد أيضا ذكر الخزانات المدرسية لكتب فى تواريخ مجير الدين والمقرى وياقوت. ومما يروى فى معجم البلدان أنه كان لشرف الملك مدرسة فى مرو فيها خزانة. وكانت أيضا خزانة فى كل من مدرسة الحسن بن إسحق، والمدرسة العميدية والمدرسة الخاتونية. أما النظامية فكان لها خزانة، وكان قد ولى عليها الأبيوردى[2].

ونذكر فى الختام قول المقريزى فى خزانة دار العلم أو دار الحكمة، «وفتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها... وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ»[3].

جهزت المدارس بالخزانات لتغذية العقول، كما جهّزت أيضا بوسائل راحة الجسم، مثل الحمامات والمطابخ والمارستانات. ونكتفى بكلام ابن جبير عما رآه فى مدارس الإسكندرية فى عهد صلاح الدين. فقد قال: «واتسع عناء السلطان بهؤلاء الغرباء (الطلبة) الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء»[4].

(١) الخطط المقريزية ٤: ١٩٧ .
(٢) معجم الأدباء ٦: ٣٤٣.
(٣) الخطط المقريزية ٢: ٣٣٤.
(٤) ابن جبير ص١٠.